المُسْتَشْرِقُونَ وَالتُّرَاث

الدكتور
عبد العظيم محمود الديب
الأستاذ المساعد بقسم الفقه
والأصول

المُسْتَشْرِقُونَ والتُّراث

الدكتور عبد العظيم محمود الديب

مدخـلٌ إلى القضيــــة :

ربما كان المدخلُ الصحيح لتقييم عملِ المستشرقين ودَوْرِهم في مجال تراثنا ، هو الإجابة على هذه الأسئلة :

- كم كان حجم تراثنا ؟ بمعنى : كم كان يقدر عدد الكتب التي تصلنا ، لو لم يقدر له أن يَلقى ما لقي ، من تحريق وتغريق ، وسطو وابتزاز ، وإهمالٍ وتهاون ؟
- ثم كم بقي لنا بعد ذلك كلــه ؟
- ثم كم منه في أيدينا الآن ؟

- وكم في أيدي المستشرقين ؟
- وماذا صنعنا بما في أيدينا ؟
- وماذا صنع المستشرقون بما في أيديهم ؟
- وكم حُقِّق ونُشر منه ؟
- وكم حقَّقنا ؟
- وكم حقق المستشرقون ؟

أعتقد أنَّ الإجابة الدقيقة المحددة عن هذه الأسئلة هي التي تعطي الصورة الصادقة ، والحكمَ الصائب على عمل المستشرقين ، ما دمنا بصدد تقييمه ووضعه في مكانه ، وإعطائه قدره .

ومع أنَّ هذه الأسئلة في جملتها تبدأ بـ (كم) أي تحتاج إلى إجابة رقمية محددة ، فإننا لا نملك إلاَّ إجابة تقريبية عن بعضها ، وعن بعضها الآخر لا نملك إجابة أصلاً ، وعن بعضٍ ثالث يستحيل أن نملك إجابة ، فمن يستطيع أن يُقدِّر لنا حجم تراثنا كلِّه ، لو لم يصبه ما أصابه ؟؟ إنَّ ذلك فوق كل حَدْسٍ ، وأبعد من كل تخمين .

إنَّ ما ضاع من تراثنا لا يمكن بحال أن يخضع لتقدير ، فمن يستطيع أن يقدِّر عدد المجلدات التي صنعت الجسرَ ، بل السَّدّ الذي عبرت عليه خيولُ هولاكو وجنودُه بين شاطئي دجلة ، ومن الذي يستطيع أن يُحصي ما حرَّقه الصليبيون في حملاتهم التي جاءت في موجاتٍ متتالية مثل موجات التتار ، وأشد فتكاً ، وظلت نحو مائتي سنة تتشبث بمواطىء أقدامها ، وبالإمارات التي اتخذتها رءوسَ جسور لاجتياح بلاد الإسلام جملة ، وكانت الكتب والمكتبات طوال هذه المعارك هدفاً مقصوداً للصليبيين حيناً ، ووقوداً للنيران الطائشة حيناً آخر ، وإن ما أصاب القدس ، وطرابلس ، وعسقلان ، وغزة ، والمعرّة ، وغيرها من المدن تدميراً وإهلاكاً وإحراقاً ، كيف يبقي على مكتباتها ؟ وبحسبنا أن نذكر أن « بعض

المؤرخين قدَّر ما أتلفه الصليبيون في (طرابلس) وحدها بثلاثة ملايين مجلد »[١] .

ويحدثنا التاريخ « أن أحد الأطباء رفض دعوة سلطان بخارىٰ للإقامة في بلاطه ، لأنه يحتاج إلى أربعمائة بعير لنقل مكتبته »[٢] .

فإذا كانت الكتب في مدينة واحدة (طرابلس) نحو ثلاثة ملايين ، والكتب التي في مكتبةٍ خاصة لواحد من الأطباء تبلغ حملَ أربعمائة بعير ، فكم يبلغ ما كان في المدن الإسلامية كلها ؟ وما كان في المكتبات الخاصة كلِّها ؟

فإذا كان هو حجم التراث ، وكان الباقي منه نحو ثلاثة ملايين مخطوطة فقط ، فإذا عرفنا ما بقي بأيدينا ، وما بقي بأيدي المستشرقين ، وما نشرناه ، وما نشره المستشرقون ، وماذا نشروه من التراث ؟ ولماذا نشروه ؟ وكيف نشروه ؟

إذا عرفنا ذلك ، نستطيع أن نفْصِل في القضية ، وأن نقدِّر للقومِ عملَهم حقّ قدره ، لا ننقُصُهم ، ولا نبخسهم ، ولا نزيدُهم ، ولا نمجدهم ، بدعوىٰ (الاعتدال) و (الإنصاف) أو تغطيةً لشعور العجز والهوان .

وسنحاول في الصفحات القادمة أن نقدم نموذجاً لهذه الدراسة ، علَّها تكون خطوة على الطريق ، نحو الحكم (المنهجي) (العلمي) (الموضوعي) على عمل المستشرقين ، ودورهم في التراث .

---

(١) الدكتور مصطفى السباعي . من روائع حضارتنا : ١٦٢ .

(٢) جلال مظهر : حضارة الإسلام وأثرها في الترقي العالمي : ٣٨٤ .

اتجاهات النشر عند المستشرقين

للآن ـ فيما أعلم ـ ليس لدينا دراسةٌ دقيقة ، تقوم على حصر أعمال المستشرقين ، في مجال تحقيق التراث ونشره ، ونحن ـ لا شك ـ أحوج ما نكون إلى هذه الدراسة ، بل نراها تأخرت طويلاً ، وإلى أن تتم سيظل الحديث في هذا المجال (عمل المستشرقين) يقوم على الحدس والتخمين ، ويعتمد على ملاحظاتٍ سريعة ، ويتأثر بأهواء مزاجية ، وصلاتٍ شخصية ، ومواقف نفسية ، تجذبه من يمين ويسار .

وحينما نقوم بهذه الدراسة ـ إن شاء الله ـ نستطيع أن نرىٰ في ضوئها ما يلي :

أولاً : عدد الكتب التي أخرجها المستشرقون بجهودهم العلمية ، وتحديد (الكم) الذي قاموا بخدمته من تراثنا ، ويتبع ذلك ، وينبني عليه بيان نسبة عملهم إلى مجموع ما تم نشرُه ، فيتحدد بالضبط المقدارُ الذي أسهموا به في نشر تراثنا ، فلا نغمطهم فضلهم ـ إن كان لهم فضل ـ ولا ننسب إليهم ما لا يستحقون استجابة لعُقدة الهوان ، ومركَّبات النقص التي سيطرت على كثيرين ممن سمَّوْا أنفسهم ، وأسمتهم أجهزةُ التضليل (قادة الفكر) .

ثانياً : معرفة اتجاهات النشر لدى المستشرقين ، بمعنى أن نعرف الكتبَ التي تحظىٰ باهتمامهم ، وتجذب انتباهَهم ، من أي لونٍ هي ، ومن أي فرعٍ من فروع المعرفة ، وما قيمتها في هذا الفن ، ثم ما علاقتها بما ينشرونه من فنون أخرىٰ .

ثالثاً : درجة الدقة والإتقان في هذه الأعمال ، بل درجة الصحة والصواب ، وماذا فيها من خلل أو زلل نتيجة للعجز عن إدراك سرّ العربية ، وامتلاك ذوقها[٣] ، والعجز عن استكناه سرّ التراث ، واستلهام روحه الرباني الإلٰهي .

بل ماذا فيها من خلل أو زلل ، نتيجةٍ للأحكام المسبَّقة ، والمواقفِ غير المحايدة ، بل العدائية التي تدعو إلى تعمد التشويه والتحريف[٤] .

وعند ذلك تفرغ الأمة من هذه القضية ويصدر الحكم فيها بالأدلة الدامغة ، والحقائق الثابتة ، فننتهي منها ، ومن اللجاجة حولها ، ونفرغ لما سواها .

نمـــوذج :

وقد حاولت إجراءَ نموذج مصغر لهذه الدراسة ، لا يشمل عملَ المستشرقين كلَّه - كما نرجو - وإنما شملَ شريحة ، أو قدراً لا بأس به من أعمالهم ، ويتمثل هذا القدر في مجموعتين ، من مجموعات المخطوطات المطبوعة :

الأولى : معجم المخطوطات المطبوعة (المجلدات الثلاثة الأولى) وهو من

---

(٣) كتب شيخُ المستشرقين الروسي ، وأقدرُهم بإطلاق (كراتشوفسكي) في يناير سنة ١٩٠٩م وهو في بيروت إلى شقيقته ، يقول لها : « إن اللغة العربية تزداد صعوبة ، كلما ازداد المرءُ دراسة لها » (راجع المقدمة التي كتبتها زوجته لكتابه [مع المخطوطات العربية] - ترجمة الدكتور محمد منير مرسي) . وما باللغة العربية من صعوبة ! وكيف تزداد صعوبة مع الأيام كلَّما ازداد دراسة لها ؟ ، إنَّ الصعوبة في إدراكِ سرّ اللغة وامتلاك ذوقها ، هذا هو الذي يعزّ على هذا المستشرق وأمثاله الذين لم ينشؤ وا نشأة عربية ، ولم يأخذوا اللغة العربية مأخذ الذين يتعربون من المسلمين ، فيُشربون حبَّها وذوقها في قلوبهم .

(٤) نعني بذلك ما قد يكون من قصور في قراءة النصوص التراثية التي نشروها ، أو في تعليقاتهم عليها أو في المقدمات والدراسات التي يلحقونها بها .

عمل الدكتور صلاح الدين المنجد[٥] .

الثانية : ذخائر التراث العربي (الجزء الأول) وهو من عمل الدكتور عبد الجبار عبد الرحمن[٦] .

وكان ذلك على النحو التالي :

أولاً : بالنسبة لمعجم المخطوطات المطبوعة اتبعتُ الخطوات الآتية :

١ ـ أحصيت كلَّ المخطوطات المنشورة ، فكانت النتيجةكالآتي :

في الجزء الأول : **٤١٤** أربعة عشر وأربعمائة (عنوان ما بين كتاب ، وجزء من كتاب ، ورسالة صغيرة .

(وذلك في الفترة من **١٩٥٤ ـ ١٩٦٠م** . سبع سنوات) .

في الجزء الثاني : **٣٥٢** اثنان وخمسون وثلثمائة (عنوان) ما بين كتاب ، وجزء من كتاب ، ورسالة صغيرة .

(وذلك في الفترة من **١٩٦١ ـ ١٩٦٥م** . خمس سنوات) .

في الجزء الثالث : **٤٣٠** ثلاثون وأربعمائة (عنوان) ما بين كتاب ، وجزء من كتاب ، ورسالة صغيرة .

(وذلك في الفترة من **١٩٦٦ ـ ١٩٧٠م** . خمس سنوات) .

---

(٥) طبع دار الكتاب الجديد . بيروت (طبعة ثانية) الجزء الأول ١٣٩٨هـ ـ ١٩٧٨م ، الجزء الثاني ١٤٠٠هـ ـ ١٩٨٠م ، والجزء الثالث ١٩٨٣م ، وعلمت أنَّ هناك جزءاً رابعاً لكن لم نستطع الوصول إليه للآن .

(٦) مرتب على حروف الهجاء بأسماء المؤلفين ، يشمل الجزء الأول من حرف (أ ـ ش) في نحو (٦٦٠) صفحة ـــ نشر جامعة البصرة ـ سنة ١٩٨١م .

٢ ـ أحصيت ما قام بنشره المستشرقون في كل جزء ، فكانت النتيجة كالآتي :

في الجزء الأول ٥٨ (عنواناً) (صرفنا النظر عن بعض الأعمال التي لا تعدو بضع صفحات) .

في الجزء الثاني ١٧ (عنواناً) (صرفنا النظر عن بعض الأعمال التي لا تعدو بضع صفحات) .

في الجزء الثالث ١٨ (عنواناً) (صرفنا النظر عن بعض الأعمال التي لا تعدو بضع صفحات) .

٣ ـ وعلى ذلك تكون النسبة المئوية لما نشره المستشرقون إلى ما نشرناه كالآتي :

في الجزء الأول ١٤٪ .

في الجزء الثاني ٤٪ .

في الجزء الثالث ٤٪ .

ويكون متوسط النسبة بين الأجزاء كلها هو : ٧٪ .

وبالنظر إلى هذه النتائج نلاحظ أن الفرقَ شاسعٌ بين الجزء الأول والجزأين الثاني والثالث ، حيث ترتفع النسبة إلى أكثر من ثلاثة أمثال . والأمر في حاجة إلى تفسير أو تعليل ، ولعلنا لا نعدو الصواب إذا أرجعناه لما يلي :

١ ـ نحن نعتقد أن (للزمن) دخلاً في ذلك ، حيث اختص الجزء الأول بفترة السنوات السبع من أول سنة ١٩٥٤م ـ إلى آخر سنة ١٩٦٠م ، وهي ما بعد سنوات الحرب والتعمير ، ذلك أن فترة الحرب العالمية الثانية ، التي انتهت سنة ١٩٤٥م ، وما تلاها من مرحلة بناء ، [وكانت أشد وأقسى من سنوات الحرب ذاتها] ـ كانت فترة خمود وركود ، أعني أن عمل المستشرقين توقف أو كاد في أثناء الحرب وما تلاها من مرحلة بناء ، فلما استقرت الأمور ، وبدأ رجال الاستشـراق يعودون لمؤسساتهم ، ومواقعهم ، كان لديهم عندما عادوا رصيداً من الأعمال توقف

نشرُه ، فأضافوه إلى ما جدَّ من عمل ، ووُلدَ من نتاج ، فكان ذلك هو السبب في تضاعف نسبة أعمالهم في هذه الفترة التي أعقبت فترة الحرب والتعمير .

ولعلَّ ما يؤيدنا في ذلك ، ما ذكره نجيب العقيقي (وهو واحد منهم)(٧) حيث قال : « وأصيب نشاط لجنة دائرة المعارف الإسلامية بعد الحرب بشيء من الاضطراب ، وقُضي على بعض أعضائها في ساحتها ، ثم استأنفت من بعدُ نشاطَها »(٨) .

ويلفت نظرنا في عبارته ، قولُه : « بعد الحرب » مما يؤكد ما قلناه من أن فترة ما بعد الحرب كانت فترة شدة وجَهد ، لا تقل عن فترة الحر ذاتها .

كما يلفت النظر أيضاً قوله : « وقُضي على بعض أعضائها في ساحتها » فهذا يؤكد ما سنقوله من علاقة المستشرقين بوزارات المستعمرات ، وأنهم كانوا طلائع الغزو الاستعماري ، وأنهم كانوا في قلب معارك بلادهم وحروبها .

٢ ــ ونستطيع أن نضيف عاملاً آخر ، وتفسيراً آخر لنقص إنتاجهم ، وهو أن سنة ١٩٦٠م هي السنة التي أعلنتها الأممُ المتحدةُ سنةَ إنهاء الاستعمار(٩) ، وبعدها اختفت من نظم السياسة (وزارات المستعمرات) وكما هو مقرر ومعروف للجميع ، كانت هذه الوزارات هي الملجأ الأول الذي يعيش في كنفه الاستشراق ، ويرعى حركته .

فلما زالت هذه الوزارات ، أو ضعف شأنها ، فقدت حركةُ الاستشراق أكبرَ مُعين لها ، وتحول من كان في كنفها من المستشرقين ، إلى ما بقي من أوكار التبشير

---

(٧) انظر كتابه (الاستشراق والمستشرقون) حيث يتحدث عن المدرسة المارونية ضمن مدارس الاستشراق ، ويجعل نفسه واحد من رجال المدرسة المارونية .

(٨) الاستشراق والمستشرقون : ١١٠٨ .

(٩) انظر حقائق أساسية عن الأمم المتحدة ص ١٧٣ أصدرته إدارة الإعلام العام بالأمم المتحدة ـ طبع بمطابع الشعب بالقاهرة سنة ١٩٨٠م .

والاستخبارات ، والمراكز الاستشارية ونحوها .

فكانت هذه الهزة سبباً - فيما نقدرُ - لهذا الانخفاض الواضح في إسهامات المستشرقين .

٣ - كم كنّا نتمنى أن نقول : إن انخفاض نسبة أعمال المستشرقين هذا جاء نتيجةً لزيادة أعمالنا ، وثمرة لكثرة إنتاجنا نحن في هذا المجال ، بمعنى أن (حجم) عمل المستشرقين بقي كما هو ، لكن بسبب ازدياد نشاطنا وجهودنا بدا عملُهم ضئيلاً وجهدُهم قليلاً . نعم . كنّا نتمنى أن نقول ذلك . ولكن هذا لا يستقيم ، ولا يكون صحيحاً ، بسبب ما هو واضح من مجرد النظر إلى العدد الكلي في الفترات الزمنية الثلاث التي كانت موضع الدراسة ، فالتفاوت بينها يسير .

ويمكن التعبير عن ذلك بالأرقام بصورة أكثر وضوحاً هكذا :

٦٠ كتاباً (متوسط العددالكلي في السنة الواحدة مَن الفترة الأولى : ١٩٥٤ - ١٩٦٠م) .

٧٠ كتاباً (متوسط لبعددالكلي في السنة الواحدة من الفترة الثانية : ١٩٦١ - ١٩٦٥م) .

٨٠ كتاباً (متوسط العدد الكلي في السنة الواحدة من الفترة الثالثة : ١٩٦٦ - ١٩٧٠م) .

ونسبة ما يخص المستشرقين في كل سنة من السنوات كالآتي :

٢ر٨ كتاباً في السنة الواحدة من الفترة الأولى .

٤ر٣ كتاباً في السنة الواحدة من الفترة الثانية .

٦ر٣ كتاباً في السنة الواحدة من الفترة الثالثة .

وبذلك يتأكد تماماً انخفاض إنتاج المستشرقين منذ سنة ١٩٦٠م .

كما يتضح أن هناك زيادة في معدّل إسهامنا ، وإنجازِنا - نحن المسلمين - في هذا المجال ، إلا أنها - كما أشرنااا آنفاً - زيادة طفيفة ، لا تتناسب مطلقاً مع ازدياد عدد

الجامعات والخريجين ، وعدد المؤسسات العلمية ، ومراكز البحوث ، والهيئات العاملة في مجال خدمة التراث ، ولا مع معدل الثراء والرخاء ، الذي حظي به العالم العربي ، ولا مع هذه الصحوة الإسلامية الفكرية الرشيدة ، التي يموج بها العالم الإسلامي اليوم .

ثانياً : بالنسبة لكتاب ذخائر التراث للدكتور عبد الجبار عبد الرحمن ، فهو قد حدد مجال عمله بقوله : « يحاول هذا الكتاب ـ جهد المستطاع ـ حصر وتسجيلَ ما طبع من المخطوطات التي صنفها المؤلفون العرب والمسلمون في شتى فنون العلم والمعرفة منذ بدء التدوين إلى نهاية القرن الثاني عشر الهجري[١٠] ، سواء ما أخرجته المطابع الشرقية ، أو الغربية ، وما حققه ونشره المستشرقون أو الشرقيون ، خلال القرنين التاسع عشر والعشرين »[١١] أي أنه معجم للمخطوطات المطبوعة منذ بدأت الطباعة ، على أن تكون هذه المخطوطات من عمل ونتاج القرون العشرة الأولى من الهجرة ، كما جعل سنة ١٩٨٠م حدًّا ينتهي إلى الكتب التي طُبعت عنده .

ولما يصل إلى يدنا للآن إلا الجزء الأول ، وقد أجرينا الإحصاء بطريق العينة العشوائية ، فاخترنا عدداً متساوياً من الصفحات من كل مائة بدون ترتيب ، فحصلنا على ست وخمسين صفحة ، بواقع ثماني صفحات من كل مائة ، من المئات السبع .

ثم أجرينا باقي العمليات الإحصائية بالطريقة السابقة نفسها :

١ ـ حصرت عددَ المؤلفات المنشورة في هذه الصفحات ، فكانت ٣٢٠ عشرين وثلثمائة كتاب .

---

(١٠) أضاف المؤلف هامشاً هنا أنه « ركَّز على مؤلفات القرون العشرة الأولى ، ولا يتعرض بعدها إلَّا للمؤلفات البارزة » كذا قال .

(١١) انظر ص : ١٠ .

٢ - أحصينا ما قام بنشره المستشرقون فكانت النتيجة ٣٢ كتاباً اثنين وثلاثين كتاباً .

٣ - وعلى ذلك تكون النسبة المئوية ١٠٪ عشرة في المائة .

ويلاحظ أن هناك تفاوتاً بين هذه النتيجة والنتائج السابقة ، بمعنى أنها في الواقع تسجل زيادة وارتفاعاً في النسبة ، حيث كان متوسط الأجزاء الثلاثة في معجم صلاح الدين المنجد ٧٪ .

وتستطيع في النهاية أن تخرج بالنتائج الآتية :

١ - أن معدل إسهام المستشرقين وإنتاجهم سجل هبوطاً ملحوظاً منذ مطلع الستينيات ، ولا يزال مستمراً .

٢ - أنه كانت هناك طفرة في السنوات التي تلت انتعاش الغرب بعد الحرب العالمية الثانية .

٣ - أن نسبة الـ١٠٪ تعتبر مؤشراً صادقاً إلى حد ما ، لمتوسط إنتاج المستشرقين . بالنسبة لمجموع ما نشر من مخطوطات منذ الطباعة للآن .

تحفُّـظ :

ولنا أن نتحفظ على هذه النتيجة (مؤقتاً) إلى أن يتم الحصر الشامل الكامل لجميع المخطوطات المطبوعة ، وما قام به المستشرقون منها .

بل سيظل هناك شيء من التحفظ [ولو تم الحصر الشامل] ، ذلك أن النسبة التي ستفلت من الحصر (وهذا شيء متوقع ، بل مقطوع به) سيكون أكثرها من عملنا ، وبالذات من نشر الأفراد ، (العمل الشخصي) ذلك أن المستشرقين يُحسنون تسجيل أعمالهم وجَدْوَلَتها ، والنشرَ عنها ، والإعلامَ بها ، ونحن نحسن استقبالها والتنويه بها ، أما جهود الأفراد بل والهيئات الإسلامية ، فيقيني أن قدراً لا بأس به من عملها سيظل خارج الإحصاء والحصر ، وعندها يبدو عمل هؤلاء أكبرَ من حجمه ، وأكثرَ من واقعه .

الاتجـــاه الفكـــري

في ضوء هذه الدراسة السابقة رأينا إسهام المستشرقين من حيث (الكم والحجم) ونسبته إلى عملنا ، أما من حيث اتجاهاتهم الفكرية ، التي يمثلها ويكشف عنها اختياراتُهم ، فقد أجرينا دراسة إحصائية على المجموعات السابقة من الكتب نفسها ، وكانت النتيجة كما يلي :

أولاً ــ بالنسبة لما هو منشور في معجم الدكتور المنجد :

[الفــن]	عدد الكتب	النسبة المئوية
التصوف والفلسفة وعلم الكلام	٤٠	٤٣٪
التراجم والتــاريخ	٢٨	٣٠٪
تفســـير	٢	١ر٢٪
لغة ونحـــو	٣	٢ر٣٪
أدب	٣	٢ر٣٪
بلاغــة	٣	٢ر٣٪
رحـــلات وجغرافيــا	٤	٣ر٤٪
شعر وطرائف	٣	٢ر٣٪
فقـــه	٤	٣ر٤٪
علـــوم	٣	٢ر٣٪
	٩٣ كتاباً	٧ر٩٩٪

ولا تختلف الاتجاهات كثيراً بالنسبة لما هو منشور في (ذخائر التراث) ، حيث تتوزع الكتب على النحو التالي :

[الفـــن]	عدد الكتب	النسبة المئوية
التصوف والأخلاق	٤	١٢ر٥٪
الديانات (مقارنة ونقد)	٢	٦٪
عقيدة وكـــلام	٢	٦٪
تـــاريخ	٧	٢١٪
تراجـــم	٣	٩٪
ســـيرة	١	٣٪
تفســـير	١	٣٪
حـــديث	١	٣٪
أدب	٢	٦٪
شعـــر	٣	٩٪
لغـــة ونحو	٣	٩٪
	٣٢ كتاباً	٠ر٩٨٪

هناك كسور طفيفة تكمل بمجموعها المائة ١٠٠٪

ويجب أن ننبه هنـــا إلى ما يلي :

(أ) أنه قد يخالفنا مخالف في هذا التوزيع ، ومرجع ذلك أن هذه المؤلفات القديمة ، قد يتنازعها أكثرُ من فنّ من فنون المعرفة ، وتصلح للانتساب لكل منها ، بما حوته من موضوعات ، ومن حيث الزاوية التي ينظر منها الناظر إليها ، ومن حيث الاعتبار الذي يعتبرها به ، فالكتاب في حياة أحد

أئمة التصوف (مثلاً) قد يصنَّف في التراجم ، وقد يصنف في التصوف ، بالنظر إلى ما حواه من مذهب الرجل وفكره .

وما برح مفهرسو الكتب يختلفون (أحياناً) في الفن الذي يضعون تحته هذا الكتاب أو ذاك ، ومعلوم للجميع (بطاقة الإحالة) حيث يصنف الكتاب في فن من الفنون ويشار إليه ، ويحال عليه في الفن الآخر الذي يمكن أن يحتويه أيضاً .

(ب) أن هذا التوزيع ـ على قوة دلالته ـ ، ليس كافياً لتوضيح اتجاهات النشر عند القوم ، فلا بد أن نرى أيَّ كتب في الفقه ينشرون ، وأيَّ كتب في التاريخ ، وأيَّ كتب في الفلسفة ، وهكذا ، فليس كل فقه ولا كل تراجم ، ولا كل تاريخ ، يكون كافياً باسمه وعنوانه ، و (صنفه) .

ولعل هذه النتائج ليست في حاجة إلى نظر أو تأمل ، فهي تنطق باتجاهات القوم في النشر بوضوح ، وتكشف عن أهدافهم بجلاء ، فالتصوّف والفلسفة وعلم الكلام (وهو الاتجاه الأول عندهم) ليعرفوا السلوك ، والفكر ، والعقيدة ، وياويل من عرف عدوُّه ، سلوكَه ونفسَه ، وحقائقَ فكرِه ، ومناحىَ آرائه ، ومكامنَ عقيدته ، وخفايا قلبه .

فهذا الولوع العجيب الغريب بدراسة هذه العلوم ، ونشر مؤلفاتها ، لا تفسير له إلا في ضوء أهدافهم ، فهم يتعرّفون على هذا اللون من الفكر ، ويتبعون شطحاته وانحرافاته ، وكيف تقعد بالناس عن الجهاد ، بل عن العمل ، أيَّ عمل ، ويرون كيف يقوم لهم هذا ـ إذا روَّجوه ـ بمهمةٍ أكبر من مهمة الجيوش ؛ إذ يَشُلُّ حركةَ الأمة ، ويُقعدها عن المقاومة ، بل يزين لها الاستسلام .

ومن أراد دليلاً على ذلك ، فلينظر في تاريخ الجزائر ، ليرى كيف قاوم (الطُّرقيون) المتصوفون حركةَ ابنِ باديس (الزعيم الروحي لحرب التحرير الجزائرية) وهي حركة دينية إسلامية واعية ، داعية لحفظ الذات ، وصيانة الهُوية ، ثم إلى المقاومة الجادّة الثابتة ، والوقوف في وجه (فَرْنَسة) الجزائر ،

ومسخها ، وكيف كان لدراسات المستشرقين ، ومطبوعاتهم أثر في هذا التوجيه الإستعماري الخبيث (للطرقيين) واستخدامهم ضد المجاهدين والوطنيين ، **وقد أكد هذا المعنى أستاذنا** الدكتور محمود[12] قاسم حين قال : « . . . إن الاستعمار الفرنسي للجزائر استطاع بجبروته وعَسفه أن يفرض لغته على كثير من المثقفين في الجزائر وشمال إفريقية ، غير أنه لم يستطع أن ينال كثيراً من العقيدة الإسلامية ، رغم ما بذله المختصون في شؤون الثقافة من محاولات لفصم العقلية الجزائرية ، عن طريق تمجيد التصوف الكاذب ، وإشاعة الخرافات والأباطيل ، على نحو ما نراه في مؤلفات لويس (ماسينيون) الذي خصص حياته للكتابة في الحلاج[13] ، فجعله صورة من المسيح في الإسلام ، وأعتقد أن ماسينيون ، ما كان يُعنَى بالحلاج قدر عنايته بتنفيذ مخطط إستعماري أحكم صنعه ؛ فقد ملأ كتابه الضخم عن الحلاج بحشدٍ هائل من الخرافات والترهات والأباطيل ، حتى **يعمق الهوّة بين طائفتين توجدان بالجزائر** : طائفة تتمسك بالقديم ، فتنساق ، حسب ظنه ، إلى اعتقاد أن هذه الخرافات والهذيانات هي صميم الإسلام ، وطائفة مثقفة بالثقافة الحديثة تتجه من جانبها إلى السخرية والزراية بهذا الإسلام الخرافي ، بل من الإسلام كله[14] » .

---

(١٢) العميد الأسبق لكلية دار العلوم جامعة القاهرة ، ولكلامه في هذه القضية وزنه وقيمته ، فهو من القلائل الذين حصلوا على دكتوراه الدولة في الفلسفة من السوربون ، وكان رحمه الله من ألمع الدارسين للفكر العالمي ، ثم هو أيضاً عايش هؤلاء المستشرقين وخبرهم عن قرب .

(١٣) مما يذكر بأسى أنَّ عالماً جليلاً نعده مستنيراً ، أسرف على نفسه وعلى قرائه ذات حديث إلى مجلة إسلامية كبرىٰ فمجد المستشرقين ، وما أدوه للتراث ، ولما أراد أن يستدل على قوله لم يجد إلَّا عملَ ماسينيون في تراث الحلاج ودراسته ، وهذا مما يشهد بما وقعنا فيه من تغرير وخداع .

(١٤) الدكتور محمود قاسم . الإمام عبد الحميد بن باديس الزعيم الروحي لحرب التحرير الجزائرية : ٧ ، وانظر الفصل الثاني من ٣٥ - ٧٠ .

بل غير خافٍ أن (لويس ماسينيون) هذا « كان مستشار وزارة المستعمرات الفرنسية في شؤون الشمال الإفريقي ، والراعي الروحي للجمعيات التبشيرية الفرنسية في مصر ، وخدم بالجيش الفرنسي خمس سنوات في الحرب العالمية الأولى[١٥] » .

ومن أراد دليلاً آخر ، فلينظر في تاريخ السودان ، وكيف حاولوا أن يمزقوه طوائف وفرقاً (وطرقاً) وكان أن تقدم أحدهم ، وأعلن إسلامه وتسمى باسم الشيخ أمين ، ولبس ملابس شيوخ الطرق ، وعاث في عقول الناس فساداً وإفسادا ، ثم هالهم أن طلع عليهم ذات صباح في صحبة (غوردون) قائد جيش الاحتلال الذي استدعته إنجلترا ليخمد ثورة السودان سنة ١٨٨٥م[١٦] .

ولعل في تلك الواقعة التي أوردها الدكتور محمد محمد حسين في كتابه (حصوننا مهددة من داخلها[١٧]) ، وهي أن مندوب مؤسسة روكلفر[١٨] الأمريكية كان يزور الجامعة السورية بدمشق ، وقد تلكأ هذا المندوب ، ولاذ بمختلف المعاذير ، حين أعربت له الجامعة عن حاجتها إلى بعض المخابر والأجهزة العلمية ، ولكنه لم يلبث أن أظهر البشاشة ، ولم يتردد في قطع الوعود بالمساعدة حين انتقل الحديث إلى إنشاء معهد لدراسة التصوف الإسلامي »

ففي تلك الأمثلة ما يشهد بأي اتجاه يريدونه لنا ، فحين تعلق الأمر ، بالمخابر والأجهزة العلمية التي تنقلنا إلى العلم وتنتج لنا منجزات العصر ، كان التلكؤ والاعتذار ، وحين كان الأمر متعلقاً بالتصوف كانت الاستعدادات جاهزة ، والمنح مبذولة ، والإمكانات متاحة ، حيث ينقلنا ذلك الفكر إلى المتاهات ،

---

(١٥) د . محمد البهي . الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي : ٥٥٦ .

(١٦) انظر بحثنا لكاتب هذه السطور بعنوان (جنوب السودان ـ دراسة تاريخية) صحيفة التربية .

(١٧) انظر ص ١٤٤ .

(١٨) معلوم أنها مؤسسة تزعم أنها تقدم مساعدات ومعونات لتنمية الدول المتخلفة .

والخلافات ، ونظل نمضغ أشياء لا تسمن ولا تغني من جوع .

وقد عبر عن ذلك أصدق تعبير في أوجز لفظ أستاذنا الدكتور محمود قاسم : « لقد نقلنا المستشرقون إلى أرسطو ، على حين نقلوا أنفسهم وقومهم إلى مناهج المسلمين « وعلومهم »[١٩] .

ألــف ليلـــة :

وإذا لم يكف كلٌ ما قدمناه من أدلة على اتجاه النشر عندهم ، وأنهم يوجهونه إلى معرفتنا ثم إلى تمزيقنا وتدميرنا .

إذا لم يكف ذلك ، فهل أتاك نبأ « ألف ليلة وليلة » ؟؟ تلك القصص الخرافية التي روّجوها فينا ، حتى فشت منها فاشية في كل أنحاء العالم الإسلامي ، ومن يتتبع طبعاتها المتوالية ، ويتتبع الدراسات والبحوث التي أجريت بشأنها ، يدرك أنهم جعلوها لنا زداً ، واتخذوها ـ هم ـ مصدر الدراسات للمجتمع الإسلامي في عصوره الناهضة الواعدة ، فجعلوا ما في هذه الأقاصيص من خرافات هي الصورة الحقيقية للمجتمعات الإسلامية ، في إبان قيادتنا للإنسانية ، وريادتنا للبشرية ، وأيام إسعادنا للدنيا وسعادتها بنا ، جعلوا « ألف ليلة وليلة » هي الصورة (الحقة) لحياة المسلمين ، حينما يسودون ويقودون ، بمنهجٍ يبدو مستقيماً ، في ظاهره ، وفي حقيقته كل الالتواء ، إذ قالوا : « إن الأدب مرآة للمجتمع الذي يولد فيه » وهو وثيقة يحررها (الناس) بعيداً عن السلطة ، وعن المراقبة ، حيث لا رغبة ولا رهبة ، ولا مجاملة ، وحيث يكتب من يكتب بنفسه لنفسه ، لا يعنيه أن يطلع الناس على ما يكتب ، ولا يدري أن الناس سيقرءون ويدرسون ما كتب[٢٠] » كذا قالوا .

---

(١٩) أنور الجندي : المؤامرة على الإسلام : ٢٠٩ .

(٢٠) لسنا هنا لمناقشة هذا المنهج (الآن) وهو الذي يبدو في ظاهره صائباً لكن . وراء ذلك ألف تحفظ وتحفظ .

وبهذا الأسلوب ، وبهذا المنطلق صارت « ألف ليلة وليلة » معينَ الدارسين ، منها يأخذون أخبار تاريخهم ومن وحيها يرسمون صورة أجدادهم ، وآبائهم ، ومن هنا لم نعجب حينما كتب (أحدهم) مقالاً هائجاً في مجلة سيارة من المجلات التي تدعو إلى (النهضة) وتحلم (باليقظة) لا نعجب إذ جعل عنوان مقاله :

(لئلا يعود هارون الرشيد)

وكتب كاتب واعٍ ممن يدري من أين أتت هذه السموم ، يرثى لحاله ، ويدعوه أن يعاودَ النظر في تاريخ أمته وكان مقاله بعنوان :

(بل ، ليعد هارون الرشيد)

ولا تعجب إذا سمعتَ ـ كما سمعتُ أستاذاً جامعياً ، ممن انعقد لهم لواء الريادة في مجال الفكر والتربية ، وصياغة العقول ، عقول شبابنا وأجيالنا المقبلة ، صرخ ذات حديث عن التراث وهو يتأفف ويكاد يصاب بالغثيان : « أتريدوننا أن نعيد ليالي بغداد وهارون الرشيد ؟؟؟ !!! .

وآخر ذات يوم يقول . وهو في نشوة الإعجاب بنفسه الراضي عن واقعه كل الرضا ، شاعراً أنه مفكر العصر والأوان . يقول : « كان هارون الرشيد إذا صعد على الدرج في قصره ، يصطف له صفان من العذارى على الجانبين ، وهن عارايات الصدور متعطرات متبرجات بزينة ، حتى يتكيء بيده على (النهود) !! .

هكذا تسري سموم « ألف ليلة وليلة » تقتل في بطء ، وتفتك على مهل ، وبدون أن تترك أثراً أي أثر (مثل ذلك النوع من السموم التي صارت تستخدمه وكالات الاستنحبارات (الحديثة) (المتحضرة) في التخلص من المناوئين .

ولو أردت أن تعرف مدى احتفاء هؤلاء بألف ليلة وليلة ، فانظر في دائرة « المعارف الإسلامية » لترى أنهم كتبوا عنها ٣٥ صفحة كاملة ، وأن نحو عشرين من عُتاتهم وأعلامهم أصدروا أبحاثاً عنها ، ما بين دراسات وترجمات وتعيلقات .

وبالتالي كان لنا مثل هذه العناية أو أشد ، حتى صارت تقدم حلقاتٍ مسلسلة في الإذاعات مسموعة ومرئية ، وكأن ما كان من كتابات ودراسات ، وطبعات ومختصرات ، لم يكف ، فأرادوا بالسم أن يصل إلى النخاع .

وآخر أخبار « ألف ليلة وليلة » ما كتبه الأستاذ أحمد بهجت في صحيفة الأهرام على لسان والد طالبة في كلية الآداب بجامعة القاهرة يشكو من تكليف ابنته بدراستها ، واطلاعها على ما فيها من فحش يخدش الحياء ، ويرجو (فقط) أن تتاح لأبنائنا طبعة (مهذبة) خالية من هذه (الألفاظ) . وإلى هنا والأمر طبيعي لا شيء فيه ، ولكن الذي يلفت الانتباه أن الأستاذ الجامعي الذي أمر طلابه بهذا ثار وهاج وماج وسب وشتم ، واتهم من يحول بين (الطالبات) وبين هذه الـ (ألف ليلة وليلة) بكل ما فيها وجعله جاهلاً بالتراث ولا يدري ما معناه وقيمته .

وهكذا تكون قد نجحت خطة القوم ، في وضع (ألف ليلة وليلة) في بؤرة الشعور ، أو في بؤرة التراث ، إن صح هذا التعبير .

الأغانـــــي :

وفي كتاب الأغاني نموذج آخر لاتجاهات هؤلاء في النشر ، فقد لقى هذا الكتاب من العناية والمبالغة في شأنه أكبر مما لقيته (ألف ليلة وليلة) ، ولن تخطىء أصابعَ المستشرقين وراء ذلك ، هذا الكتاب العجيب الغريب ، الذي ليس أعجب منه إلا حياة مؤلفه ، فقد قالوا : « إنه أموي نسباً شيعي مذهباً » وهذا لم يتفق لأحد سواه ، أما وصف حياته ، وخلقه وسلوكه ، ففيه ما يقبح ذكره[٢١] ، ويكفي أن علماء الرجال الأثبات قالوا في الحكم على روايته : « كذاب

(٢١) منذ فترة ونحن نعد بحثاً في هذا الموضوع جعلنا عنوانه (كتاب الأغاني ـ ذلك النهر المسموم) لكن تجذبنا الشواغل وما يجدّ من قضايا هنا وهناك ، فلا نفرغ له . فعسى أن يكون ذلك قريباً إن شاء الله .

يأتي بالعجائب والغرائب بحدثنا وأنبأنا[٢٢] » .

هذا الكتاب وما لقيه من اهتمام ظهر أيضاً في العناية بطبعه ، وإخراجه ونشره وإذاعته ، ثم في الدراسات والأبحاث حوله ، ثم تيسيره وإتاحته لكافة المستويات على هيئة : تجريد الأغاني ، وتهذيب الأغاني ، ومختارات الأغاني . ثم أيضاً حلقات إذاعية ومسلسلات ، حتى صار هو المصدر الأول (لكل) الدراسات الأدبية (تقريباً) وتعدّى ذلك إلى دراسة التاريخ ، بل وتاريخ الفكر من فقه وتفسير وعقيدة ، ومن ثم استشرى خطرُه وصار ما فيه من طرائف وغرائب أحكاماً ثابتة ، وقضايا مقررة ، يستند إليها من يطعنون في رواة السنة ، وفي فتاوي الأئمة ، وآراء الفقهاء ، وأحكام القضاة .

وصار وهو كتابٌ (للأغاني) أي يؤ رخ لجانب من جوانب الحياة ، هو جانب اللهو والعبث ، صار ما فيه من استطراد ، وأخبار تابعة لأخبار اللهو والمجون ، صار ذلك هو الأصل ، والأساس الذي يبنى عليه ، والمصدر الذي يُعتمد عليه عند الدارسين ، وما ذاك إلا لأنه أقرب موردٍ إليهم ، وأيسر شِربٍ بين يديهم ، فمنه يعبون ، وبه يرتوون ويروون . حتى شربت الأمة كلها أو كادت من هذا النبع المسموم .

---

(٢٢) ميزان الاعتدال ، ولسان الميزان .

هــذه أثارهـــم :

كثيراً ما يمتن علينا هؤلاء المستشرقون ، وتلاميذهم ، بأنهم نشروا لنا أمهات المراجع ، والكتب الأصول ، فيذكر لنا نجيب العقيقي ومن لف لِفَّه ، « أنهم أخرجوا لنا ألوف الذخائر ، مرتبة مفهرسة ، تعتمد عليها جامعاتنا ، ويرجع إليها علماؤنا ، مثل :

١ - السيرة النبوية : لابن هشام .
٢ - فتوح البلدان : للبلاذري .
٣ - الطبقات الكبرى : للواقدي .
٤ - معجم الأدباء : لياقوت .
٥ - نفح الزهور : لابن إياس .
٦ - الكامل : للمبرد .
٧ - نقائض : جرير والفرذق .
٨ - تاريخ الطبري .

ولكن لست أدري لماذا لم يذكروا أنهم نشروا[٢٣] مثل هذه الكتب :

١ - **أخبار الحلاج الحسين بن منصورت ٣٠٩هـ - ٦٢٢م**
نصوص قديمة جمعها ماسينيون مع ترجمة فرنسية .

---

(٢٣) المقصود هنا هو كل ما نشرته مؤسساتهم ومطابعهم ومجلاتهم ، سواء أكان من عملهم وتحقيقهم أم من عملنا نحن ، بل إن ما يكون من عملنا هو في الواقع ثمرة لتوجيههم وأثر لفكرهم . وهذا أسوأ من عملهم المباشر .

٢ - **الطواســين .**

للحــلاج .

٣ - **البلغة في الحكمة .**

لابن عربــي .

٤ - **طبقات الصوفية .**

السلمي أبو عبد الرحمن بن .

٥ - **آداب الصحبة وحسن العشرة .**

للسلمي . أيضاً .

٦ - **التشوف إلى رجال التصوف .**

ابن الزيات الشاذلي يوسف بن يحي (٦٢٧ هـ - ١٢٣٠م) .

٧ - **الرسائل الصغرى .**

لابن عباد الرندي ، أبو عبدالله محمد بن إبراهيم ت ٧٩٢ هـ .

٨ - **الخلوة والتنقل في العبادة ودرجات العابدين .**

الحارث بن أسد المحاسبي . ٢٣٤ هـ - ٨٥٧م .

٩ - **ذم الدنيـــــا .**

لابن أبي الدنيا أبو بكر عبد الله بن محمد عبيد القرشي البغدادي (٢٨١ هـ) .

١٠ - **المتنقى من كتاب الرهبان .**

لابن أبي الدنيا أيضاً .

١١ - **المسائـــــل .**

للخراز أبو سعيد أحمد بن عيسى (٢٨٦ هـ - ٨٩٩م) .

١٢ - **رسائل الجنيــد .**

الجنيد بن محمد البغدادي ٢٩٧ هـ .

١٣ - **مثلي الطريقة في ذم الوثيقة .**

للسان الدين بن الخطيب (٧٧٦ هـ - ١٣٧٤م) .

١٤ - **الأئمة المستورين .**

المهـدي عبـد الله .

١٥ - **الشافيـــة .**

لأبي فراس شهاب الدين الإسماعيلي .

١٦ - **الهَفْت والأظِلة**

للمفضل بن عمر الجعفي .

صاحب فرقة خاصة (المفضلية) من الشيعة الإسماعيلية .

١٧ - **تاج العقائد ومعدن الفوائد**

لعلي بن محمد الوليد الراعي الإسماعيلي المطلق ٦١٢ هـ .

١٨ - **الإيضـــاح .**

للراعي . شهاب الدين الإسماعيلي .

١٩ - **الأقصار في فقه الشيعة .**

للنعمان بن محمد المغربي القاضي ت ٣٦٣ هـ .

٢٠ - **الحكم الجعفرية .**

الإمام جعفر الصادق رضي الله عنه .

٢١ - **تفسير الإمام جعفر الصادق .**

٢٢ - **تنقيح الأبحاث للملل الثلاث .**

لابن كمونة اليهودي سعد بن منصور (٦٨٣ هـ - ١٢٨٤) .

٢٣ - **رسالة راهب من فرنسة إلى المقتدر بالله .**

لراهـب من فرنســة .

٢٤ - **الديا سطرون أو الإنجيل الرباعي .**

ألفه باليونانية ططيانس .

ترجمة ابن الطيب البغدادي (٤٣٥ هـ) .

٢٥ - **متالب عليّ بن أبي بشر (أبي الحسن الأشعري)**

للأهوازي . الحسن بن علي بن إبراهيم المقريء (٤٤٦ هـ - ١٠٧٤م) .

٢٦ - **رسالة في الحكمين وتصويب أمير المؤمنين عليّ في فعله .**

للجاحظ .

٢٧ - **النهج السديد والدر الفريد .**

لأبي الفضائل مفضل القبطي المصري ٧٥٩ هـ .

٢٨ - **الأخلاق والانفعالات النفسانية .**

لابن سينا .

٢٩ - **عيون الحكمة .**

لابن سينا أيضاً .

٣٠ - **تعبير الرؤيا .**

أرطاميدوس - نقله إلى العربية حنين بن إسحاق (٢٦٠ هـ - ٨٧٣م) .

٣١ - **الآثار العلوية لأرسطو طاليس .**

٣٢ - **رسالة في ماهية العدل .**

مسكوبة أحمد بن محمد ٤٢١ هـ .

٣٣ - **الحيل (في الفقه) .**

للخصاف أبو بكر أحمد بن عمرو (٢٦١ هـ) .

٣٤ - **ديوان أبي نواس .**

٣٥ - **رسالة التربيع والتدوير .**

للجاحظ التي يسخر فيها من أحمد بن عبد الوهاب ويهزأ بعيوبه الجسيمة .

٣٦ ـ المفاخرة بين الجواري والغلمان .

للجاحـــظ أيضـــــاً .

تأمل في هذه الكتب [وهي نماذج من مائة وخمسة وعشرين كتاباً موضوع الدراسة في الإحصاء الذي أشرنا إليه] وانظر كيف يلغون في موضوع الفرق ونشأتها ، وكيف يلجون ويلحون ويلحفون في هذه القضية ، ثم كيف يستميتون في إبراز هذه الاتجاهات الفكرية المتعارضة ، وكأنهم يريدون أن يعرفوا التربة التي فيها نشأت ، والعوامل التي بها ازدهرت ، حتى يهيؤ وا لها دائماً أن تظل حية متأججة ، تشغل الأمة وتستهلك قواها ، وتستحوذ على فكر علمائها ، ولُب قادتها ، فتضرب بينهم الفرقة ، ويعشعش الخلاف . وللأسف كثير من ذلك قد كان .

(خيانـة المنهـج)

ليســوا أمنـــاء :

إن أكثر ما يلوكه المسبِّحون بحمد المستشرقين ، هو الإشادة بدقتهم وتجردهم للبحث والعلم ، وقدرتهم على التمحيص والتدقيق ، وأنهم قادة هذا الميدان وفرسان هذا المجال ، والمستشرقون أيضاً حَرصوا كلَّ الحرص على أن يُضفوا على أنفسهم هيبة العلم وقداسة محرابه ، وأن يخفوا تحت شارته وردائه كل (أغراضهم) و (أهوائهم) • وأصبحت كلمات : (الأكاديمى) (البحث العلمي) (المنهج) (حربة الرأي) (قيمة العقل) (والحيدة العلمية) . . . الخ أصبحت هذه الشعارات درعاً سابغاً تورات تحته مكنونات الصدور ، وخفيات الضمائر وسموم الأحقاد ، ولكن لله درّ الإمام ، أمير المؤمنين أبي جعفر المنصور حين قال : « إنه ما أسرّ أحد معصيةً قط إلا ظهرت في آثار يده وفلتات لسانه » .

ولو وضع تلاميذ المستشرقين وأتباعهم ، والذاكرين الشاكرين لهم ، هذه الغشاوة عن أعينهم ، وهذه الحجب عن بصائرهم ، لرأوا ما خلف هذه الأقنعة ، وعلموا أن كلام المستشرقين في العلم والمنهجية وحرية البحث والحيدة العلمية مجرد أقنعة تتراكم وتتراكب إمعاناً في إخفاء ما تحتها ، ولو نظرنا في عمل هؤلاء المستشـرقين بمقـاييس (العلم) و (المنهـج العلمـي) و (البـحث الأكاديمي) . . . لوجدناهم أول من يصفع هذا المنهج على قفاه ، ويدوسه بقدميه . وهو في نفس الوقت رافعُ رايته ، متقدمُ باسمه ، ضارب بسيفه .

وإن القوم لعلمهم أن حربَ الكلمة والفكر ، ليست كحرب السلاح والدم ، في الثانية كلما تكاثفت الضربات ، وتوالت الطعنات ، وتقدمت الجيوش تحرق وتدمر ، كلما كان النصر .

لكن في حرب الكلمة والفكر (كلما كانت الضربة) أخف وأرق وألطف ، وكلما تباعدت الضربات ، وكلما كانت الضربات والطعنات مغلفة بغلاف كافٍ من الحقائق ، والصدق ، كلما كان كذلك كان ، أوجع وأوقع ، وأخطر .

نماذج من تحريف النصوص وخيانة المنهج :

* جـولد تسـيهر :

— يحمل المستشرق جولد تسيهر على السنة المطهرة حملة شعواء ، ويحشد لما يقوله من التشكيك فيها ، أدلةً من أوهامه ، وتزييفاته ، وتحريفاته ، نكتفي بعرض نموذجٍ واحد لهذه التحريفات ، التي يزيف بها النصوص ، ويغيرها ، لتحقق له هدفه .

وهو محاولة الطعن في رواة الحديث جملةً ، فيستعرض ، بعضَ ما يقوله علماءُ الرجال في الرواة ، ويُخرجونه مخرج الجرح والتعديل ، ليوهم بأن هؤلاء الرواة ، مجروحون ، كذابون .

● فمن ذلك قوله : « . . . ويقول : وكيع عن زياد بنِ عبد الله البكّائي : إنه مع شرفه في الحديث كان كذوباً ، ولكن ابن حجر يقول في التقريب : « ولم يثبت أن وكيعاً كذبه » .

يريد جولد تسيهر بهذا أن يقول : إن زياداً البكّائي كان كذوباً ، مع علوّ منزلته

في الحديث ، وذلك بشهادة (وكيع) أحد أعمدة الجرح والتعديل ، فإذا كان مثل زياد البكّائي (كذوباً) فأيّ ثقة بالحديث ، والسنة ؟؟ !! .

فلننظر أصْل النص ، وكيف حرّفه جولد تسيهر ، جاء في التاريخ الكبير للإمام البخاري : « وقال ابُن عُقبة السَّدوسي عن وكيع : هو (أي زياد بن عبد الله البكّائي) أشرفُ من أن يكذب » أ . هـ .

هذا هو النص كما ترى ينفي عن زيادٍ الكذبَ أشدَّ النفي وأبلَغه ، فهو « أشرف من أن يكذب » أي أنه أبعد من الكذب بسجيته وفطرته ، وطبعه وشرف نفسه ، وعلوّ همته وسموّ نفسه ، فلو كان الكذب (حلالاً) غيرَ منهي عنه شرعاً ما كذب . ، كما روي عن بعضهم ، « لو كانت خيانتُك حلالاً ما خُنْتك » مبالغةً في بعد الخيانة عن طبعه ، ومجافاتها لشيمه .

ومع وضوح هذا النص يحرّفه هذا المستشرق إلى : « أنه كان مع شرفه في الحديث كذوباً » .

● ومن تحريفات جولد تسيهر أيضاً في نفس المجال ، اتهامُه للإمام الزهري بأنه كان « مستعدّاً لأن يضع الأحاديث لبني أمية ، وأن يكسوَ رغباتِ الحكومة باسمه المعترَف به عند الأمة الإسلامية ، ولم يكن الزهري من أولئك الذين لا يمكن الإتفاقُ معهم ، ولكنه كان ممن يرى العمل مع الحكومة ، فلم يكن يتجنب الذهابَ إلى القصر ، بل كان كثيراً ما يتحرك ، في حاشية السلطان ، **بل إننا نجده في حاشية الحجاج عندما ذهب إلى الحج ، وهو ذلك الرجل المبغَض . . . » الخ .**

يريد بذلك أن يوهم القارىء أن الزهري كان تابعاً لذوي السلطة ، يجري في فلكهم ويستمتع بالقرب منهم ، في مقابلة ما يؤديه لهم من خدمات في تخصصه ، أي العلم بالحديث ، حيث يخترع لهم الأحاديث التي (تكسو رغبتَهم ثوباً دينياً) .

ولا يعنينا هنا تفنيد هذه التهم ، فليس هذا مجاله[٢٤] ، ولكن يعنينا أن نضع أمام القاريء الصورة البشعة لتحريف النصوص وتزييفها ، بقصد تنفير الناس من الإمام (الزهري) أحد أعمدة السنة وأركانها ، فالزهري لم يكن مع الحجاج بن يوسف الثقفي في حاشيته حين حج ، وإنما كان مع عبد الله بن عمر ، حين اجتمع مع الحجاج « وإليك النَّص على حقيقته كما ورد في تهذيب التهذيب لابن حجر : « أخرج عبُد الرزاق في مصنَّفه عن الزهري ، قال : كتب عبدُ الملك إلى الحجاج أن اقتد بابنِ عمرَ في المناسك ، فأرسل إليه (أي إلى ابن عمر) الحجاجُ يوم عرفة إذا أردت أن تروح فآذِنّا ، فراحَ هو وسالم ، وأنا معهما . . . فالزهري إنما كان مع عبد الله بن عمر ، حين اجتمعا بالحَجاج ، لا في معية الحَجاج[٢٥] »

ثم هو يتعامى أيضاً ، عن ورع عبد الملك ، وأمره للحجاج بالاقتداء بابن عمر ، وعن طاعة الحجاج واقتدائه بابن عمر ، ولكنه لا يرى شيئاً من ذلك ، حتى يؤكد ما قرروه في أذهان تلاميذهم من مؤرخينا ، عن ظلم بني أمية وفسادهم .

● ونموذج ثالث لتحريف هذا المستشرق نفسه ، في نفس المعنى ، أعنى اتهامَ الإمام الزهري بالوضع ـ كبرت كلمة تخرج من أفواههم ـ قال عن الزهري واستعداده لمسايرة الحكام ، ووضع ما يرون من أحاديث : **قد كانت تقواه تجعله يشك أحياناً ، ولكنه لا يستطيع دائماً أن يتحاشى تأثيرَ الدوائر الحكومية** ، وقد حدثنا مَعْمر عن الزهري بكلمة مهمة ، وهي قوله : أكرهنا هؤلاء الأمراء على أن نكتب (أحاديث) فهذا الخبر يُفِهم استعدادَ الزهري أن يكسوَ رغباتِ الحكومة ، باسمه المعتَرف به عند الأمة الإسلامية » .

---

(٢٤) نحيل القارىء إلى الكتاب القيم (السنة ومكانتها في التشريع الإسلامي) لنابغة الدعوة والإسلام المرحوم الدكتور مصطفى السباعي من ص ١٨٧ ـ ٢٣٥ [وعنه أخذنا مادة هذه الفقرات عن تحريف جولد تسيهر] .

(٢٥) د . مصطفى السباعي : السنة ومكانتها في التشريع الإسلامي : ٢٢٣ .

ونلاحظ أنه في نفس الوقت يحاول أن يظهر بمظهر الحيدة العلمية ، الخالية من الغرض ، فلا يحرم الزهري من وصف (التقوى) المعروف به ، بل يُضفي على عبارته ما يجعلها أولى بالتصديق ، فيجعل الزهريَّ ذلك التقي الصالح ، يستشعر الندم أحياناً ، ويعترف بخطئه ، ويبرر لنفسه ذلك بأنه واقع تحت الإكراه ، من السلطة . وهكذا بهذا الملمس الناعم يسوق تزيينه وتحريفه ، وينفثه في خفةٍ ومهارةٍ .

وهو في كل ذلك يرتكز على ذلك النص المنقول عن (مَعْمر) ليوهم القاريء بأنه يوثق ما يقول ، ويملك دليلاً على ما يدّعى .

وهذا النص الذي نقله فيه تحريف متعمد يقلب المعنى رأساً على عقب ، وأصله كما عند ابن عساكر ، وابن سعد : أن الزهري كان يمتنع عن كتابة الأحاديث للناس ـ كان يفعل ذلك ليعتمدوا على ذاكراتهم ، ولا يتكلوا على الكتابة ـ فلما طلب منه هشام ، وأصر عليه أن يُملي على ولده ليمتحن حفظه كما تقدم ، وأملى عليه أربعمائة حديث ، خرج من عند هشام ، وقال بأعلى صوته : يأيها الناس ، إنا كنا منعناكم أمراً ، قد بذلناه الآن لهؤلاء ، وإن هؤلاء الأمراء أكرهونا على كتابة (الأحاديث) فتعالَوْا حتى أحدثكم بها ، فحدثهم بالأربعمائة الحديث) .

هذا هو النص التاريخي لقول الزهري ، وقد رواه الخطيب البغدادي بلفظٍ آخر ، وهو : « كنا نكره كتابَ العلم ـ أي كتابته ـ حتى أكرهنا عليه هؤلاء الأمراء ، فرأينا أن لا نمنعه أحداً من المسلمين » أ . هـ .

ونترك التعليق لقلم المرحوم الدكتور مصطفى السباعي إذ يقول : « فانظر كم الفرق بين أن يكون قول الزهري ، كما روى جولد تسيهر « أكرهونا على كتابة أحاديث » وبين أن يكون قوله كما رواه المؤرخون : « أكرهونا على كتابة الأحاديث » أو كما رواه الخطيب « على كتابة العلم » ثم انظر إلى هذه الأمانة

العلمية حذف (ال) من (الأحاديث) ، فقلبت الفضيلة رذيلة . . . حيث كان النص الأصلي يدل على أمانة الزهري وإخلاصه في نشر العلم ، فلم يرض أن يبذل للأمراء ما منعه عن عامة الناس ، إلا أن يبذله للناس جميعاً ، فإذا (أمانة) هذا المستشرق تجعله ينسب للزهري أنه وضع للأمراء أحاديث أكرهوه عليها ، فأين هذا من ذاك[٢٦] ؟؟ .

* **وِل ديـــــورانت** :

وإذا شئنا نماذج أخرى لتحريفاتهم ، فإليك ما أورده (ول ديورانت) في كتابة (قصة الحضارة[٢٧]) .

● يقول عن النبي ﷺ : « وقد أعانه نِشاطه وصحته على أداء واجبات الحب والحرب . ولكنه أخذ يضعف حين بلغ التاسعة والخمسين من عمره ، **وظن أن يهود خيبر قد دسوا له السم في اللحم قبل عام من ذلك الوقت** ، فأصبح بعد ذلك الحين عرضة لحميات ، ونوبات غريبة . . . الخ[٢٨] » .

ولا يعنينا أن نناقش القبح والفحش الذي كتب به المؤلف ما كتبه عن نبينا عليه أفضل الصلاة والسلام ـ بأبي هو وأمي وبنفسي وبالناس أجمعين ـ فليس هذا مجال مناقشته ، ولكن الذي يعنيني أن أضبط هذا المستشرق العلامة ، متلبساً بخيانة المنهج . وذلك قوله : (وظن أن يهود خيبر قد دسوا له السم في اللحم)

---

(٢٦) السنة ومكانتها في التشريع الإسلامي : ٢٢١ ، ٢٢٣ .

(٢٧) قامت على ترجمة هذا الكتاب الإدارة الثقافية بالجامعة العربية ، وصدر على نفقتها في أكثر من ثلاثين جزءاً . وقد نقد هذا التصرف من الجامعة العربية الأستاذ الجليل محمد محمد حسين رحمه الله ، وقال : « . . . إنَّ اختيار هذا الكتاب للترجمة جريمة دبرتها الصهيونية الهدَّامة المتخفية في زوايا اليونسكو . . . إلخ . انظر (حصوننا مهددة من داخلها : ١٨٩ ـ ١٨٧ لترى نقداً موضوعياً علمياً لهذا الكتاب .

(٢٨) الجزء الثاني من المجلد الرابع مسلسل رقم ١٣ ص ٤٦ سطر ٧ ـ ١٠ .

فهذا التعبير بـ (ظن) يريد به أن ينفي صحة الخبر ، ليبريء اليهود بالتالي من جريمة محاولة قتله ﷺ بالسم ، ومن قتل الصحابي الجليل الذي أكل معه .

وهذا الخبر (خبر دس السم) موجود مشهور في مصادر السيرة النبوية المختلفة ، فقد أورده ابن هشام في سياق غزوة خيبر ، وأورده ابن سعد في طبقاته ، ورواه البخاري في غير موضع : ١٧٦/٥ ، ومسلم ١٤/٧ - ١٥ كلاهما من حديث أنس ، وأحمد برقم ٢٨٨٥ من حديث ابن عباس وأبو داود : ١٤٦/١ ، والدرامي ٣٣/١ عن جابر . . .] وفيه اعتراف اليهود بدس السم وعفو الرسول ﷺ ، عن هذا الجرم الفظيع ، مع موت الصحابي الجليل البراء بن معرور بهذا السم .

ومع ثبوت هذا الخبر ووفرة مصادره تأبى (الأمانة العلمية) و (الحيدة الأكاديمية) و (منهج البحث) على هذا المستشرق العتيد إلا أن يزيف ويحرّف ، فينكر الخبر ، وينسب الحادثَة في إيجازٍ بارع إلى مجرد ظنٍّ ووهم .

● وعلى حين ينكر هذا الخبرَ الثابتَ ، يحرف ويزيف خبراً آخر ، يزيد فيه وينقص منه .

فيقول في ص ٧٧ وهو يتحدث عن الثراء الذي جاء المسلمين نتيجةً للفتح : « . . . وكان للزبير بيوت في عدة مدن مختلفة ، وكان يمتلك ألف جواد ، وعشرة آلاف عبد . . . » .

وهذا الخبر بهذه الصورة وبهذا الإيجاز يجمع ألواناً وأفانين من التحريف ، ففيه زيادة ، وفيه نقص ، وفيه تغيير وتبديل . وبيان ذلك :

أن الخبر ورد في المصادر المعروفة والمشهورة هكذا : « كان للزبير ألف مملوك يؤدون إليه خراجهم كل يوم ، فما يُدْخلُ إلى بيته منها درهماً واحداً يتصدق بذلك جبيعه »

هكذا ورد الخبر في :

(١) الإصابةلابن حجر العسقلاني : ١/٥٤٦ ،
(٢) أسد الغاية لابن الأثير : ٢/١٩٨ ،
(٣) البداية والنهاية لابن كثير : ٧/٢٥١
(٤) صفة الصفوة لابن الجوزي : ١/٣٤٦ ،
(٥) الاستيعاب لابن عبد البر (بهامش الإصابة) : ١/٥٨٣ .

وبعض هذه المراجع من منشورات المستشرقين ، أعنى أن هذا الخبر بهذه الصبغة كان متاحاً له وبين يديه ، (وهم يزعمون ، ويزعم تلاميذهم أنهم يستقصون المراجعَ ، ولا يخطون حرفاً إلا بعد جمع كل ما يتصل بموضوعهم) ولكنه كما ترى ارتكب التحريفات الثلاثة الآتية :

(١) زيادة ألف جواد من عنده ، فقد أقحمها في الخبر ، ولا وجود لها فيه أصلاً .
(٢) نقص الجزء الأخير من الخبر عن تصدق الزبير بخراج هؤلاء المماليك .
(٣) زيادة الألف مملوك إلى عشرة آلاف .

وهكذا تكون (الأمانة العلمية) و (النزاهة) و (الحيدة) و (التجرد) و (المنهج) إلى آخر هذا الركام من الأحجار التي يُلقمونها لمن يريد أن ينظر في عمل المستشرقين ..

● وهاك نموذج آخر للتحريف وخيانة المنهج ، وهو ما قاله هذا المستشرق عن هارون الرشيد ، ذلك الخليفة العظيم ، وعلاقته بالبرامكة ، قال : « **وكان هارون يحب جعفر حباً أطلق ألسنة السوء في علاقتهما الشخصية ، ويقال : إن الخليفة أمر بأن تصنع له جبة ذات طوقين ، يلبسها هو وجعفر معاً ، فيبدوان كأنهما رأسان فوق جسم واحد ، ولعلهما كانا في هذا الثوب يمثلان حياة بغداد**

الليلية[٢٩] » (كذا) .

انظر : مؤرخ الحضارة ، عملاق الفكر ، وربيب الأكاديمية ، وسادن العلم ، وأستاذ البحث والمنهج ، ينكر الحديثَ الثابت والخبر المتفق عليه ، الذي تردد في كل الكتب تقريباً ، « عن دس اليهود السم للرسول ﷺ » ، ويضيف ويغير في خبر ثروة الزبير رضي الله عنه ، ويأتي هنا بخبر (لقيط) لا يُدرى له أصل ، فيحتفي به أيما احتفاء ، بل يبنى عليه من عنده ، فيتخذ منه مناسبةً ليطعن بغداد دار السلام عاصمة الدنيا كلها في ذلك الوقت ، فيقول : « ولعلهما كانا في هذا الثوب يمثلان حياة بغداد الليلية » هكذا يقذف المجتمعَ كله بهذه الفرية ، ولنا على هذا الكلام ملاحظتان :

الأولى : أن هذا الخبر على فرض صحته ، كان الأولى به أن يعف عن ذكره ، فلا (يلوِّث) به كتابه ، ولا يؤذي به حياء قارئه ، فهذا شأن العلماء ، والباحثين ، لا سيما وأن الخبر في سياقه مقحم لا قيمة له ، فإثبات قوة الصلة بين هارون الرشيد والبرامكة لا تحتاج إلى إلى مثل هذا الفحش ، الذي يعف عنه عامة الناس ، بله كبار العلماء ، (آهٍ متى يعود لأمتنا مكانها حتى تقيم حدود الله ، وتجلد هؤلاء القذفة) .

الملاحظة الثانية : أن هؤلاء المستشرقين دائماً يدعون إلى العقل ، وتحكيم العقل في الخبر مهما كانت صحة سنده ، والسؤال للمستشرق العملاق ، هل يقبل عقلُ عاقل (أي عاقل) ، بله عقل

(٢٩) الجزء الثاني من المجلد الرابع (مسلسل رقم ١٣) ص ٩٣ سطر ٥ - ٨ . ولا يعفي « ديورانت » أنه عزا هذا الكلام إلى « مرجليوث » في كتابه (محمد ومطلع الإسلام) بل إن هذا يضاعف الجرم (أفعى ترضع سماً) ويشهد بعراقة الإفساد ، وتمكن الحقد من نفوس القوم ، وإحكام الكيد وسوء المكر ، وإن الإنسان ليعجب أيّ علاقة لهذا الكلام عن هارون الرشيد بكتابٍ عن (محمد ومطلع الإسلام) ؟؟ أية منهجية هذه ؟؟؟

متحضر ، بله عقل (مؤلف عالمي) هل يقبل العقل أن يمشي رجلان في ثوب واحد ؟؟ وكيف ؟ وبأي سعةٍ يكون هذا الثوب ؟ وأيهما يمشي أولا ؟ وأيهما يمشي ثانيا ؟ أم كان هناك إيقاع موسيقى يضبط حركتهما ؟؟ .

وإذا تركنا هذا الإمكان (العملي) ، فهل يقبل العقل أن حاكماً في مثل منزلة هارون الرشيد كان فارغاً لهذا العبث ، بل لهذا الفساد ؟ وهل يعقل أن من يصل إلى هذا الحد من (السقوط) يمكن أن يكون صاحب هذا التاريخ الذي زحم الدنيا ، من الغزوات والانتصارات والسفارات ، والبناء والتعمير ، وقيادة (الدنيا كلها) في طريق الحضارة والنور ، هذه الخطوات الفساح الذي تمت في عهد الرشيد ، هل يقبل عقلُ عاقل أن هارون الرشيد الذي كان يقود الجيوش بنفسه ، ويقضي الشهور تلو الشهور في ملابس الميدان ، هذا الذي أذلّ أباطرةَ الروم ، ودفع عن ثغور المسلمين دسائسَهم ومؤامراتِهم ، حتى مات مجاهداً ودفن هناك في (طوس) على أطراف دولته ، بعيداً عن عاصمته و (قصره) مسيرة أيام ، هل يعقل عاقل أن هذا المجاهد يصل إلى هذا المنحدر من السقوط ؟؟ إلا في عقل . هؤلاء المستشرقين .

بل إن جعفر البرمكي هذا كان قائداً محنكاً ، ولا شك أن مؤرخ الحضارة قرأ عن أعماله الحربية العظيمة ، وأن هارون الرشيد كان يرمي به في أخطر المآزق ، ويلجأ إليه في أشق المضايق ، فطالما قمع الفتنة ، وردع العدوان ، وسدّ الثغور ، وحمى الحصون ، وجال في أرض العدو وصال .

أفمثل هذين العظيمين الطاهرين المجاهدين يكون فارغاً لما

يـرمز إليـه بهمزه ولمـزه ، ذلك المؤلف العـالمي (الهمـزة اللمزة[٣٠]) .

مستشـــرقٌ ثالـــث :

* (فـان فـــلوتن) :

يعتبر (فان فلوتن) أحد المستشرقين المعينيين بالتاريخ الإسلامي ، خاصة فترة الأمويين والعباسيين ، ونستطيع أن نجد اسمه يتردد في كثير من الكتب الجامعية مرجعاً من مراجعهم يباهون به ، ويفتخرون بالإعتماد عليه ، وهو يغريهم بما ينسبه إلى الطبري ، والبلاذري ، واليعقوبي ، والواقديسي ، ونحوهم ، فيخيل للباحثين والدارسين أنه (وثَّق) كل أخباره ، وأتى بها من منابعها ، فيعجبون به ، ويطمئنون إليه .

السيطرة العربية :

لفلوتن كتاب بهذا الاسم ، ونظراً لأهميته في مجال التاريخ حظى بعناية من رجال التاريخ عندنا ، فترجمه إلى اللغة العربية سنة ١٩٣٤م الدكتور حسن إبراهيم حسن ، ومحمد زكي إبراهيم ، وطبعت هذه الترجمة طبعتين ، ثم ترجمه سنة ١٩٨٠م مرة ثانية الدكتور إبراهيم بيضون ، وفلوتن متخصص في تاريخ هذه الفترة حيث كانت أطروحته للدكتوراه في نفس الموضوع ، ودراسته ومقالاته وأبحاثه تتجه كلها هذه الوجهة .

---

(٣٠) نحن نعرف ويعرف (ول ديورانت) أكثر منَّا مَنْ قادة الفكر والرأي في بلاده يصدق عليهم يقيناً ما حاول أن يرمي به هارون الرشيد وجعفر بل حاول أن يرمي به المجتمع المسلم في بغداد كلها ، نحن نعرف ولكن نعفّ ونطهر قلمنا وكتابنا أن نذكر ، ولا نهمز ولا نلمز .

ومن هنا كان لكلامه وزن وقيمة ، وكان (لتحريفه) للمصادر و (خيانته) للمنهج خطر عظيم ، وكان هذا منه جرماً أي جرم .

ونحن نلتزم بهدفنا هنا ، فلا يعنينا ما في الكتاب من تهجم على الإسلام والمسلمين ، الذي لا يعدو أن يكون سباً وشتماً (بأسلوب أكاديمي) ، وإنما يعنينا هنا جريمته في حق (التراث) وكيف حرف المصادر والمراجع وزيفها .

وإليك هذا المثال :

● جاء في ص ٦٧ قوله : « وقد فرضت حالةُ الترف المتصاعدة هذه [يقصد الترف الذي أصابه المسلمون ثمرةٍ للفتوح] تغطيةً دائمة لمواجهة متطلبات جديدة ، واللجوء إلى الاستدانة كطريقةٍ فذّة من أجل إشباع رغباتهم . . . » ثم أحالنا على الطبري : ١/٢٨١١ .

فماذا نجد في الطبري في هذا الموضع ؟

لم نجد في الطبري إلا خبراً عن استدانة سعد بن أبي وقاص من بيت مال الكوفة ، وكان خازن بيت عبد الله بن مسعود رضي الله عنهما ، وكان سعد والي الكوفة ، فاستقضى عبد الله بُن مسعود رضي الله عنه سعداً ، واشتدّ في مطالبته ، فاستمهله سعد فلم يقبل ، وكان بينهما تلاوم ، ووصل إلى عثمان بن عفان رضي الله عنهم جميعاً ، فلا مهما معاً ، وقال لهما : أنتما أصحاب رسول الله ﷺ ، فكيف تتلاحيان هكذا أمام الناس ، وعزل سعداً ، وأقرّ عبد الله بن مسعود على عمله .

هذا هو ما ذكره الطبري ، فكيف يفهم منه أيُّ قاريء • بَلْهَ باحث ضليع ، يقتعد مقعد الأستاذية ؟؟

كيف يفهم من هذه الحادثة أن الاستدانة قد صارت ظاهرة في المجتمع ؟؟ وأنها أصبحت وسيلة (فذة) لإشباع الترف الذي شاع فيه ؟ كيف يفهم هذا ؟ وبأي منطق يقال هذا ؟ وأي ترفٍ كان في مجتمع الكوفة سنة ٢٦ هـ .

ثم لو نظر إلى هذه الحادثة بعين مجردة ، ودون تعمق ولا (منهج بحث) ولا . . . ولا . . . ألا يجد فيها فخراً للإسلام والمسلمين ؟؟ ألا يرى كيف لم يستطع الحاكم (والي الكوفة) أن ينال من مال الجماعة إلا قرضاً ؟ ثم ألا يرى كيف كانت أمانة خازن بيت المال الذي لم يسعه السكوت عن (الوالي) واصطناع يدٍ عنده ، وأي (يدٍ) ؟ بالتأجيل فقط طبعاً (لا بالتنازل) ثم ألا يرى تلك الحرية التي وسعت (موظفاً) (صرافاً) (خازناً) يلاحي الأمير ، ويناصيه ، ويغلظ له ؟؟ !! أية (ديمقراطية) هذه ؟؟ ألا تهز أعطافه ؟ ألا تروعه ؟ ألا تبهره ؟ .

ثم ألا يتبادر إلى الذهن أن الحاجة ، والفاقة هي التي ألجأت سعداً إلى الاستدانة ؟؟ وهذا هو الواقع !! ففيم كان يستدين سعد في ذلك الوقت ؟؟ وفي أي مجالٍ كان ينفق فيه في ذلك الحين ؟؟ فقد كانوا يعيشون عيش الكفاف !! .

ثم لو مدّ بصره قليلاً ، لقرأ في الأسطر التالية بقية القصة ، وكيف أن سعداً لشدة ألمه من عنف عبد الله بن مسعود ، وعدم رفقه وتأنيه به - رفع يديه إلى السماء ، وقال : اللهم ربَّ السموات والأرض . . . فقاطعه عبدُ الله بنُ مسعود قائلاً : ويلك !! قل خيراً ولا تلعن . وخاف أن يدعو سعدُ عليه ، فقال سعدٌ عند ذلك : أما والله لولا اتقاء الله لدعوت عليك !!! كلماتُ تقطر تقوى ، وتندى بالحب والإخاء ، ومواقف تنطق بالطهارة والتعفف .

ولو قرأ بقيةَ الصفحة لوجد أن الأمير الذي تولى بعد سعد على الكوفة مكث خمس سنين ، وليس على داره باب !!! فأي ترف ؟ وأي استدانة ؟ .

ولكن هكذا بهذا التحريف ، وبهذا التزييف ، استكره النص ، واستنطقه ما لا ينطق به ، وقال على الطبري ما لم يقل ، وقلب الحسنات سيئات .

● والأمثلة لا تنتهي ، ولكننا نكتفي بنموذج آخر من كلام (فلوتن) في نفس الكتاب في نفس الموضوع جاء في ص ٦٦ : « **ولقد أصابت الأسرُ المرموقة في الكوفة ثراءً ، فاحشاً كان مصدره (المغانم) والأعطيات السنوية ، فكان الكوفي**

إذا ما ذهب إلى الحرب ، يصطحب معه أكثر من ألف من الجمال ، عليها متاعه وخدمه » ثم نسب ذلك إلى الطبري : ٢/٨١٠٦ س ٨ .

وعلى البذيهة نرفض أن يكون هذا الكلام في الطبري ، فنحن نعرف الطبري رضي الله عنه إماماً عالماً ، مؤرخاً محدثاً فقيهاً ، أو على الأقل (عاقلاً يدري ماذا يقول) !! فكيف يذهب الجندي المقاتل إلى الميدان ومعه أكثر من ألف من الجمال تحمل متاعه وخدمه ؟ كيف يقاتل ومعه هذه الحاشية ؟ وما يصنع بحمل ألف جمل من المتاع في الميدان ؟ وإذا فرضنا أن الجيش كان عشرة آلاف مقاتل (وهذا تقدير متواضع) فكم عدد الجمال التي تحمل متاعهم ؟ أليست أكثر من عشرة ملايين من الجمال ؟ كيف يتحرك هذا الجيش ؟ وأية طرق تسعهم وأية مياهٍ تكفيهم ؟ وأية مراعٍ تطعمهم ؟ وإذا سقط من الجيش بضعُ مئات أو آلاف قتلى في الميدان ، فأين تذهب الملايين من الجمال التي تحمل أمتعتهم .

لو قرأ أي عاقل هذا الخبر في أصح كتابٍ لا تًّهم صاحبه ، أو على الأقل نسبه إلى الخطأ والوهم ، ورفض أن يحكي هذا الكلام أو ينقله .

ولكن المستشرق العظيم في غمرة اجتهاده لإثبات أن فتوحات المسلمين كانت انتهاباً لخيرات وثروات البلاد التي فتحوها راح يجمع الأدلة من هنا وهناك ، ويلويها ليا ، ويزيفها تزيفاً ، إلا أننا ما كنا نتوقع أن يخرج بتزييفه إلى حد اختراع هذه الخرافة ، التي لا شك لم ينتبه إليها ، فقد شهدت عليه لا له .

وهل لذلك أصل في الطبري ؟؟ .

إن عبارة الطبري تقول على لسان قيس بن الهيثم أحد أصحاب مصعب بن الزبير قبيل التحامه مع جيش عبد الملك بن مروان ، يُرغِّب أهلَ العراق في القتال ، ويبين لهم حسن معاملة ابن الزبير لهم ، ورفعه لمنزلتهم ومكانتهم :

« . . . والله لقد رأيتُ سيد أهل الشام على باب الخليفة يفرح إن أرسله في حاجة ، ولقد رأيتنا في الصوائف ، وأحدنا على ألف بعير . . . » .

فالقائل هنا يريد أن يوازن لأهل العراق بين معاملة خليفة الشام لأصحابه ، فالسيد منهم يقف بالباب ، ويعتدها تكريماً من الخليفة لو أرسله في حاجته ، وبين إكرام حكامهم (الزبيريين) لهم ، فالواحد منهم على ألف بعير . ومعني على ألف بعير ، أي أمير ألف ، وكان هذا أكبر لقب في الجيش بعد القائد العام ، أي أنهم في كنف الزبيريين كلهم أمراء . (انظر العسكرية العربية للواء الركن محمود شيت خطاب كتاب الأمة رقم ٣ ص ٤٤) .

وهكذا نختم بهذا النموذج من تحريف المستشرقين وخيانتهم للمراجع والمصادر .

ولا يقولن أحد : إنكم بهذا تتصيدون للقوم أخطاءهم تصيداً !! ومن الذي لا يخطيء ؟ بحسبهم فخراً ، ويكفيهم نبلاً أن تُعدّ عيوبُهم ، وأن تحصى أخطاؤهم ، من ذا الذي ما ساء قط ، ومن له الحسن فقط ؟ لكل جواد كبوة ، ولكل عالم هفوة .

والجـــــواب :

أولا : أن هذه ليست كبوات ، وليست هفوات ، بل هي عَمْد مع سبق الإصرار والترصد .

ثانيا : أنها حقاً قليلة ، لا تساوي شيئاً بالنسبة إلى ما في الكتاب من حقائق صادقة ، ومعلومات قيمة ، بل لما فيه أحياناً من تمجيد لنا ، وثناء على تاريخنا ، واعتـرافٍ بعظمـة ديننا . ولكن ذلـك لا يخدع إلا السذج ، والأغرار ، فإن هذا أمر مقصود ، مدروس ، وكيد محكم وتدبير خبيث ، ذلك أنهم لو صارحونا بكل ما في جعبتهم من السهام ، وما في فكرهم من سموم لكان لهم منا العناد والإعراض ، بل المقاومة والدفاع ، والانتقام ، يقول العلامة أبو الحسن الندوي - مد الله في عمره - تحت عنوان : الاستراتيجية الدقيقة : « ومن دأب

كثير من المستشرقين أنهم يعينون لهم غاية ويقررون في أنفسهم تحقيق تلك الغاية بكل طريق ، ثم يقومون لها بجمع معلومات ـ من كل رطب ويابس ـ ليس لها أي علاقة بالموضوع ، سواء من كتب الديانة والتاريخ ، أو الأدب والشعر ، أو الرواية والقصص ، أو المجون والفكاهة ، وإن كانت هذه المواد تافهة لا قيمة لها ، ويقدمونها بعد التمويه بكل جرأة ، ويبنون عليها نظرية ليس لها وجود إلا في نفوسهم وأذهانهم .

إنهم في أغلب الأحيان يذكرون عيباً واحداً ، ويجوِّدون لتمكينه في النفوس بذكر عشرة محاسن ، ليست لها أهمية كبيرة ، وذلك كي يقف القاريء خاشعاً أمام سعة قلوبهم وسماحتهم ، ويسيغ ذلك العيبَ الواحد الذي يكفي لطمس جميع المحاسن .

وكثير من هؤلاء المستشرقين يدسون في كتاباتهم مقداراً خاصاً من « السم » ويحترسون في ذلك ، فلا يزيد على النسبة المعينة لديهم ، حتى لا يستوحش القاريء ، ولا يثير ذلك فيه الحذر ، ولا يضعف ثقته بنزاهة المؤلف .

إن كتابات هؤلاء أشد خطراً على القاريء من كتابات المؤلفين الذين يكاشفون العداء ، ويشحنون كتبهم بالكذب والافتراء ، ويصعب على رجلٍ متوسط في عقليته أن يخرج منها ، أو ينتهي في قراءتها دون الخضوع لها[٣١] » .

---

(٣١) (الإسلام والمستشرقون) بحثٌ ألقاه سماحته أمام المؤتمر الذي عقد بهذا الاسم (الإسلام والمستشرقون) بإشراف (دار المصنفين) بأعظم جره بالهند في فبراير سنة ١٩٨٢م ، وكان لنا شرف المشاركة فيه ، (انظر مجلة البعث الإسلامي رمضان سنة ١٤٠٢هـ ص : ١٤ ، ١٥ .

خاتمـــــة :

الآن تستطيع أن تقول بالنتائج التالية ، بعضها بالتحقيق ، وبعضها بالتقريب :

١ - إن حجم عمل المستشرقين في مجال نشر التراث ، وتحقيقه ، لا يكاد يذكر[٣٢] .

٢ - أنهم عُنوا بالنشر في اتجاهين :

- تراث الفرق ، والإحن ، وكل ما يؤدي إشاعتُه ونشرُه إلى تجديد النزاع بكل صوره ، الفكري ، والمذهبي والسياسي .
- كل ما يفقدنا الثقة بماضينا وأمجادنا ، ورجالنا ، وقادتنا ، ويكفيهم ألف ليلة ، والأغاني .

٣ - أنهم يلبسون طيلسان البحث العلمي ، ويرفعون لواء (الأكاديميات) وهم مضلِّلون ، خائنون للعلم و (المنهج) و (الأمانة) و (طرق البحث) البحث .

٤ - أن عنايتهم بالتراث ، كانت ، وما زالت ، وستظل ، من باب (اعرف عدوَّك) فهذه الكتب (التراثية) هي الخرائط ، والصور ، لعقولنا وعواطفنا ، ومشاعرنا ، واتجاهاتنا ، واهتماماتنا ، وحبنا ، وبغضنا ، وغضبنا ، ورضانا . فهي المفاتيح التي عرفوا بها كيف يخططون لتدميرنا ثقافياً ، واجتماعياً ، وفكرياً ، وعلمياً ، بعد ما حطمونا عسكرياً ، وحربياً ، وسياسياً .

---

(٣٢) ما زلنا في حاجة إلى دراسة استقصائية شاملة ، لا تقوم على (العيِّنات) والنماذج كالتي قمنا بها .

٥ - ومن أعجب العجب أن تجد أمةً ـ مثل أمتنا ـ تشكر ، وتمجد ، وتعظم أمر سارقي وثائقها ، لمجرد أنهم احتفظوا بها ، أو قدّموا إليها صورة منها ، وعهدي بالدول الواعية ، أنها تفضل حرق وثائقها من أن تقع في يد أعدائها .

والله أسأل : أن تعود أمتنا إلى مجدها وعزها ، وأن يعيننا على قول الحق ويجعله خالصا لوجهه .